24

البعث والقضية الفلسطينية
وثائق للتاريخ

العمل الفدائي وتحديات الوضع اللبناني

رغيد الصلح



تونس 1986



منشورات الطليعة

العمل الفدائي وتحديات الوضع اللبناني[1]

رغيد الصلح

ان العوامل البارزة والمؤثرات التقليدية في الاوضاع اللبنانية لا تقدم تفسيرا واضحا لواقع العمل الفدائي في لبنان . فعلى الرغم من ((خصوصية)) الوضع اللبنانية التي لا تشكل بنظر الكثيرين في لبنان وغير لبنان من الاقطار العربية ، اسبابا موجبة لتقليص المشاركة اللبنانية في النضال ضد اسرائيل ، فان لبنان يبدو وكأنه يتحمل من أعباء مجابهة العدو ما يفوق الاعباء التي تتحملها اكثر الدول العربية .

فالجبهة اللبنانية لم تهدأ تماما ، وعلى الرغم من اجواء السلم المسيطرة على كافة الجبهات العربية . والمنظمات الفدائية لا تزال تقيم قواعد عسكرية مكشوفة لها في جنوب لبنان وهي تملك من حرية الحركة ما لا تملكه في سوريا مثلا او الاردن . ان هذا الوضع مرشح للزوال ، كما تشير تقديرات متشائمة تستند الى سلسلة من الخطوات والاجراءات التي تتخذها الحكومة اللبنانية لتقييد

---

١ ــ «الثائر العربي» ، العدد الاول .

حرية العمل الفدائي التي ترمي بحسب هذه التقديرات الى تصفية العمل الفدائي نهائيا من خلال مخطط تدريجي يتجنب دخول معارك عسكرية حاسمة .

ومع ذلك فان أستمرار العمل الفدائي في لبنان على الرغم من تصفية كافة مظاهر وجوده العلني في الاردن وعلى الرغم من المضايقات الشديدة في سوريا والحملات التي يتعرض لها في اكثر الاقطار العربية ، ان هذا الاستمرار يضفي على الوجود الفدائي في لبنان طابعا خاصا يجدر بنا ان نحاول فهم اسبابه ودلالاته من خلال تتبع الوقائع والتطورات التي مر بها ، لكي نستخلص من ذلك بعض الاستنتاجات التي تضيف الى خبرتنا دروسا جديدة.

الطبقة الحاكمة وفلسطين

ان مخاوف الطبقة الحاكمة في لبنان من الحركة الصهيونية ومن اسرائيل لم تكن أقل من مخاوف الطبقات الحاكمة في الاقطار العربية الاخرى . أن هذه المخاوف تضرب جذورها في أعماق التركيب الاقتصادي والاجتماعي للطبقة الحاكمة اللبنانية ، كما انها تتعمق وتشتد مع حرص هذه الطبقة الشديد على الدور الذي باتت تمثله في المنطقة العربية .

فعلى قمة النظام اللبناني تقف فئة الكومبرادور ورجال المصارف . وهذه الفئة تفضل ان تحقق أرباحها الطائلة وسط أجواء الاستقرار وبعيدا عن أجواء الحروب والمعارك العسكرية التي تعرقل في أغلب الاحيان نشاطها الاستغلالي . كما ان هذه الفئة وان كانت حريصة دائما على الاشادة بمزاياها ومواهبها الخارقة، فانها تدرك تماما صعوبة منافسة الرأسمالية الصهيونية التيجعلت العلم ميدانا لمغامراتها المالية والسياسية .

وبحكم احتكاك الطبقة الحاكمة في لبنان بالغرب واطلاعها على المخططات التي يعدّها لتمكين الحركة الصهيونية من المنطقة

العربية ، فان مخاوفها كانت تبدو احيانا سابقة لمخاوف الطبقات الحاكمة في الاقطار العربية الاخرى .

ان أفصح أفراد الطبقة الحاكمة في لبنان تعبيرا عن هذه المخاوف هو أبعدهم اثرا في صياغة «ايديولوجيتها» . المفكر اللبناني ميشيل شيحا . يقول شيحا : «وهكذا يبدو مستقبل لبنان حيال اسرائيل ، مستقبلا حالك الجوانب ، ولنا ما يدعو حقا الى المخاوف ، في السلم او في الحرب على السواء» (١) .

ولا يلبث ان يوضح اسباب المخاوف قائلا : «فعلى الصعيد الاقتصادي وهو صعيد يفضي حتما الى السياسة تشكل مجاورة اسرائيل خطرا لا يستهان به اذ ان قوة كهذه لا يمكن ان تنمو الى جانبنا دون أن تشد الخناق على اعضائنا الرئيسية ودون ان تحد من وسائل عيشنا» (٢) .

ان التنافس مع الصهيونية ليس هو وحده الذي يثير مخاوف شيحا فحسب ، بل يثير هذه المخاوف ايضا الاحتمالات التي يطرحها الصراع مع الصهيونية وقيام اسرائيل «وقد يقودنا تطور القضية الفلسطينية الى اعادة النظر في الكثير من قيمنا الاقتصادية» (٣) .

ان شيحا الذي ينفذ بصره لرؤية الاخطار التي يقود اليها قيام اسرائيل لا يحاول ان يبحث عن حل حاسم لهذه القضية : «فاذا نحن لم نتعمق في تقليب المعضلة وفهمها ، ولم يتعمق في تقليبها وفهمها أولئك الذين يصنعون المصير ، فقد تتحقق يوما كل مخاوفنا ، حتى أبعدها خطرا في ذلك ضربا من الغيب سره في ضمير الانبياء» (٤) .

---

١ ــ لبنان في شخصيته وحضوره ، ص ٤٥ .

٢ ــ نفس المصدر ، ص ٧٥ .

٣ ــ نفس المصدر ، ص ٧٥ .

٤ ــ نفس المصدر ، ص ٤٥ .

ولكن اذا تحقق الغيب وتحققت مخاوف شيحا بقيام اسرائيل فانه يفتح الباب امام حل يعتقد انه قد يدرأ الخطر عن لبنان «اني في تحذيري لبنان وجيران اسرائيل من مصممات اسرائيل ، لا أدعو على الاسرائيليين وعلى اليهود عموما بالويل والثبور . معاذ الله من هذا الموقف الحقير الآثم ! نحن ندعو لهم باليمن والازدهار، شريطةالا يكون يمنهم على حسابنا والا يأتينا الشقاء على ايديهم»! (١)

ان قراءة حية لافكار ميشيل شيحا على ضوء ما عرفناه من مواقف الطبقة الحاكمة اللبنانية من مجمل القضايا العربية وعلى ضوء ادراكنا للدقة المفرطة التي يعبر عنها هذا الصيرفي المنظر عن مصالح الطبقة التي ينتمي اليها ، تجعلنا قادرين على بلورة بعض نقاط الارتكاز في سياسة الحكم اللبناني ازاء القضية الفلسطينية حتى التاريخ الذي بدأ فيه العمل الفدائي يصبح ظاهرة مؤثرة عسكريا وسياسيا واقتصاديا .

ان الذي يعني الطبقة الحاكمة في لبنان بالدرجة الاولى ليس خطر الصهيونية التوسعي وانما خطرها الاقتصادي فاذا استطاعت اسرائيل تحقيق كافة اهدافها الاستراتيجية فان ذلك سيلغي امتيازات الطبقة الحاكمة اللبنانية على الصعيد العربي . لانها عندئذ هي التي ستقوم بتمثيل دور الوسيط بين الاحتكارات العالمية وبين المنطقة العربية وحرمانها من هذا الدور يعني حرمان الطبقة الحاكمة في لبنان من العامل الرئيسي في ازدهارها وانتعاشها الاقتصادي .

وحتى لو لم تحقق الصهيونية انتصارها النهائي فان الحدة التي تطرح بها القضية الفلسطينية قد تؤثر على النظام الاقتصادي الحر ، وعلى نمط العلاقات الاجتماعية السائد في لبنان .

اي ان الطبقة الحاكمة تخشى ان تؤدي تطورات القضية الفلسطينية الى تغييرات داخلية مشابهة للتغييرات التي حدثت في

---

١ ـ لبنان في شخصيته وحضوره . ص ١٤١ .

الاقطار العربية تحت وطأة هزيمة ١٩٤٨ ، وذلك عندما ظهر عجزها عن التصدي للخطر الصهيوني ، وهذا خطر في نظر الطبقة الحاكمة لا يقل شأنا عن خطر انتصار اسرائيل . فالنائب اللبناني البارز ريمون اده يعتبر الشيوعية (وهو يعني كافة التيارات اليسارية وحتى الاصلاحية) خطرا على لبنان يماثل الصهيونية .

انه في الوقت الذي كانت فيه الطبقات الحاكمة تعد وتهيء لتلافي تفاعلات القضية الفلسطينية على الصعيد الداخلي ، بتقوية جهاز القمع وتحويل الجيش الى رديف لقوات الامن الداخلي ، فانها كانت تتصرف وكأن مآل الصراع غير معروف مع اسرائيل ! اي انها كانت تبتعد عن اي اعداد او تهيئة لمجابهة العدو . اما الحل الذي كانت تقدمه الطبقة الحاكمة لاحتمالات الصراع مع العدو فقد كان يذهب في اتجاهين رئيسيين :

ـ اقناع أللبنانيين بأن ثمة حماية اجنبية تحمي البلد من اسرائيل .

ـ الاعتماد على توازن القوى العربية ـ الاسرائيلية كعامل رئيسي من عوامل الحفاظ على الاوضاع الراهنة في المنطقة العربية كلها ، وبالتالي لبنان .

الجماهير اللبنانية والقضية الفلسطينية

ان سياسة الطبقة الحاكمة ازاء القضية الفلسطينية كانت تنبع كما ذكرنا من حدود التناقض بينها وبين الحركة الصهيونية في اطار تبعية الجانبين للامبريالية العالمية . الا ان هذه السياسة التي عرضنا معالمها الرئيسية لم تكن تعبر البتة عن المشاعر الوطنية للجماهير اللبنانية وعن مدى استعدادها للتضحية وللمساهمة في النضال ضد خطر يستهدف الامة العربية برمتها .

ان التعبير عن هذه المشاعر تبلور احيانا بأشكال متفاوتة ومتعددة من انواع النضال ضد العدو جنبا الى جنب مع الجماهير

الفلسطينية . لقد كان لبنان مركزا رئيسيا من مراكز التعبئة والتحريض ضد المخططات الصهيونية. وعندما زار بلفور بيروت في طريقه الى فلسطين عام ١٩٢٦ استقبله اللبنانيون بالاستنكار. واشترك كثيرون من اللبنانيين في ثورة ١٩٣٦ بقيادة الطرابلسي فوزي القاوقجي . ولقد استطاع هؤلاء مع المتطوعين العرب الذين جاءوا من سوريا والعراق ان يسببوا متاعب جمة للسلطات البريطانية . وبرز القاوقجي في معارك ١٩٣٦ الى درجة أستثارت غيرة بعض قادة الثورة الفلسطينية آنذاك فأخذوا يوجهون اليه شتى الاتهامات ويحاولون التقليل من اهمية اعماله العسكرية .

ولقد تكررت المشاركة اللبنانية في النضال العسكري ضد العدو عام ١٩٤٨ عندما انضم الكثيرون منهم الى «جيش الانقاذ» .

ان موقف الطبقة الحاكمة من هذه المشاركة لم يكن سلبيا اذ كانت المعارك تدور كلها من الاراضي الفلسطينية ولم يكن طابعها ليؤثر تأثيرا مباشرا على الاوضاع اللبنانية . غير انه عندما حدثت هزيمة ١٩٤٨ وانتشر اللاجئون في لبنان تغير موقف الحكومة اللبنانية من اي تحرك سياسي او عسكري يقوم به اللبنانيون او الفلسطينيون على الاراضي اللبنانية .

ذلك ان فكرة استمرار الكفاح المسلح ضد العدو لم تبارح الفلسطينيين الذين انتقلوا الى لبنان . «فالهيئة العربية العليا» احتفظت بجزء من تشكيلاتها السرية المسلحة في المخيمات، وظهرت مبادرات متعددة لاقامة منظمات عسكرية بين النازحين لمواصلة الجهاد . غير ان السلطات اللبنانية كانت تحارب هذه المبادرات بقوة . وكثيرا ما كانت تلصق بالقائمين عليها تهمة التعامل مع العدو وذلك لكي يسهل عليها توجيه اقصى العقوبات بحقهم وعزلهم عن الجماهير الوطنية اللبنانية الفلسطينية .

ومما كان يسهل مهمة الطبقات الحاكمة في لبنان ، ان معظم هذه المبادرات كان يتسم بعدم الجدية وبالافتقار الى أفق تاريخي يحولها من حركات فردية منعزلة الى حركات جماهيرية مؤثرة

وفعالة ، ألامر الذي مكّن الطبقة الحاكمة في لبنان ان تضبط كافة النشاطات الفلسطينية في اطار التحرك السياسي الذي لا يحرجها ولا يسبب لها متاعب ذات شأن سواء مع العدو ام مع الجماهير الوطنية في لبنان . استمرت الحالة على هذه الوتيرة حتى ظهور حركة التحرير الوطني الفلسطيني «فتح» .

● بدايات العمل الفدائي

لقد مهدت «فتح» لظهورها في ميدان النضال العسكري بنشاط تبشيري وتنظيمي شهدت الاراضي اللبنانية جانبا منه . فمنذ عام ١٩٥٩ بدأت «فلسطيننا» ـ لسان حال «فتح» آنذاك ـ تصدر وتوزع في لبنان . وساعد النواة التنظيمية الاولى لفتح على مواصلة نموها ، الحوار الذي بدأ يدور آنذاك في لبنان بين الحركات العقائدية حول ضرورة ابراز الشخصية ألفلسطينية ردا على المشاريع الدولية المشبوهة لطمس القضية الفلسطينية وتصفية مشكلة «اللاجئين» .

غير ان وجود «فتح» فوق الاراضي اللبنانية لم يصبح وجودا ذا شأن ، الا بعد ان بدأت تمارس نضالها العسكري ضد العدو. وبعد ان تبين للسلطات اللبنانية ان تنظيم «فتح» العسكري في لبنان يلعب دورا هاما في هذا النضال حاولت ان تقذف «فتح» بتهمة العمالة للعدو كما كانت تفعل في السابق، الا ان هذه التهمة لم تؤثر كثيرا على المنظمة الجديدة نظرا لتمتعها بخصائص وميزات لم تكن متوفرة في المحاولات السابقة التي جرت من اجل تكوين منظمات مسلحة للفلسطينيين في لبنان .

وظهر فشل السلطات اللبنانية في تلويث سمعة «فتح» خلال قضية الشهيد جلال كعوش .

لقد استشهد المناضل جلال كعوش في نهاية عام ١٩٦٥ تحت أيدي رجال المكتب الثاني اللبناني بينما كانوا يحاولون ان ينتزعوا

منه اسرار التنظيم في لبنان . وجربت السلطة ان تقلل من اهمية الحادث ، وأن تجعله خطأ اداريا بسيطا . الا ان هذا الحادث تحول الى قضية سياسية هامة في نطاق الصراع بين الجماهير اللبنانية والطبقة الحاكمة في لبنان حول القضية الفلسطينية . كما كانت هذه القضية محكا لمواقف سائر القوى والاحزاب الوطنية في لبنان برز فيها دور حزب البعث العربي الاشتراكي باعتباره الحـــزب الاكثر قدرة على فهم التحولات التي طرأت على النضال الفلسطيني وعلى الدور النضالي الذي يجب ان تلعبه الجماهير اللبنانية على ضوء هذه التطورات .

ففي حين اعتبرت بعض الفئات الوطنية هذه القضية مظهرا من مظاهر تعسف الادارة اللبنانية في معاملة الفلسطينيين في لبنان (الحرية) ، اعتبر البعث مقتل الشهيد كعوش كاشفا لحقيقـــة السياسة اللبنانية ازاء القضية الفلسطينية وإزاء النضال لتحرير فلسطين .

وفي حين ارادت بعض الفئات الوطـ ـية ان تدفن قضية الشهيد كعوش بسرعة كي لا تحرفها عن النضال الاجتماعي ـ الاقتصادي ـ الذي كانت منغمسة فيه ، اعتبر البعث هذه القضية متصلة بجوهر الصراع بين الجماهير اللبنانية وبين الطبقة الحاكمة في لبنان .

لم تؤد هذه المعركة التي خاضتها قوى الحركة الوطنيةبنسب وأشكال متفاوتة الى ايقاف الحرب السرية التي اعلنتها الدولة ضد طلائع العمل الفدائي ، ولكنها أدت على الاقل الى تجميد تصعيد السلطة لمستوى القمع الذي كانت تمارسه ، هذا اذا لم نقل الى التخفيف من حدة قمعها للفدائيين .

وبعد استشهاد المناضل جلال كعوش ، مرت فترة هدوء على الجبهة اللبنانية ـ الفدائية تخللها حادث مقتل الشهيد احمد عطا الدحابرة على يد رجال السلطة بينما كان عائدا مع مجموعة من الفدائيين من عملية له في الاراضي المحتلة .

• العمل الفدائي بعد الخامس من حزيران

واستمر هذا الهدوء حتى انفجار الخامس من حزيـــران والتطورات التي لحقت بالهزيمة المريعة التي تعرضت لها الدول العربية والتي كان في طليعتها بروز العمل الفدائي كقوة سياسية وعسكرية ذات فعالية ملحوظة في النضال ضد العدو .

لقد كان لبنان البلد الثاني بعد الاردن الذي خطط الفدائيون للتمركز فيه والانطلاق منه لضرب المراكز الحيوية في ارض العدو. ويعود هذا الاختيار لاسباب عديدة أبرزها ما يلي :

ــ ان الحدود اللبنانية تصلح تماما لممارسة كافة فنـــون وأساليب اعمال العصابات فالاختباء فيها سهل والتسلل منهـــا ممكن . وهي مليئة بالاحـــراج والمغاور والمرتفعات المطلة علـــى ارض العدو .

ــ ان الجليل الاعلى المحاذي للحدود اللبنانية مليء بالمنشآت الصناعية الاسرائيلية التي تصلح هدفا لنشاط الفدائيين وازعاجهم .

ــ في الجليل الاعلى كثافة سكانية عربية يمكن تثويرها وتحويلها الى «بحر تعيش فيه الاسماك» الفدائية . والاتصال بين عـــرب الجليل الاعلى وأبناء الجنوب لم ينقطع تماما بعد الحرب .

ــ ان عمليات الفدائيين عبر الحدود الاردنية كانت تتعرقـــل بفعل ارتفاع منسوب مياه نهر الاردن في شهور الشتاء . امـــا الجبهة اللبنانية فكانت خالية من الحواجز والموانع الطبيعية .

ــ ان نسبة الفلسطينيين الى نسبة ابناء القطر في لبنان كانت اعلى من نسبتهم في اي قطر عربـــي آخـــر باستثناء الاردن . فالمديرية العامة للامن العام في لبنان تقدر عددهم بحوالي ٣٠٠ الف فلسطيني . اي ان نسبتهم تبلغ حوالي ١٢ بالمئة من سكان لبنان البالغ عددهم حوالي مليونين ونصف .

واكثرية الفلسطينيين في لبنان تعيش في مخيمات تحيـــط بالمدن التي كانت مركزا للانتفاضات الوطنية . ففي وسط المنطقة

الوطنية الشديدة الالتهاب في بيروت يقع مخيم شاتيلا وفي ضواحي بيروت ايضا مخيمات : مار الياس ، برج البراجنة ، جسر الباشا ، تل الزعتر . وعلى مقربة من صيدا عين الحلوة والمية ومية، ومن صور الرشيدية والبص وبرج الشمالي ، ومن طرابلس البارد والبداوي ، ومن بعلبك ويفل ، ومن النبطية مخيم النبطية .

ان نمط الاذلال الوطني والاجتماعي الذي يتعرض له سكان المخيمات يمدهم بقابلية ثورية عالية ، ويحفزهم الى التجاوب مع كل دعوة تغييرية تخرجهم من حياة الاستسلام والرتابة والقهر .

ان الطبقة الحاكمة اللبنانية تعيش حالة خوف دائم من المخيمات والطريقة التي كانت تتعامل الدولة فيها مع الفلسطينيين شرحها الرئيس السابق فؤاد شهاب لاحد القادة الوطنيين الفلسطينيين على الوجه التالي :

«الفلسطينيون في لبنان يشكلون حوالي ١٢ بالمئة من مجموع سكانه ، وهم مسيَّسون اكثر من اية فئة أخرى تعيش في لبنان. ان جهازنا الاداري غير مهيأ لدمجهم بالحياة العامة في لبنان ، ولاستيعاب نشاطاتهم ونزعاتهم . ولذلك فالدولة مضطرة لمعاملتهم بالعنف والشدة» .

وهكذا فان اوضاع الفلسطينيين منحت العمل الفدائي أرضا خصبة للتمركز والتحرك فوق الاراضي اللبنانية .

ان النشاط الفدائي في لبنان سبق الخامس من حزيران غير انه بدأ يأخذ طابعا منظما ومتصاعداً في نهاية عام ١٩٦٧ . وكان الفدائيون يمرون عبر الاراضي اللبنانية على الرغم من العراقيل المستمرة التي كانت السلطات المحلية تقيمها في وجههم وعلى الرغم من المناوشات والاصطدامات التي كانت تحصل من حين الى آخر بينهم وبين القوات المسلحة اللبنانية .

استمر نشاط الفدائيين على هذا الوجه مع دخول عام ١٩٦٨ ، الا ان تطوراً جديدا طرأ عليه هو اقبال اللبنانيين على الانتساب

اليه . ولقد ارتفعت نسبة المتطوعين اللبنانيين ارتفاعا هائلا بعد اعلان استشهاد المناضل خليل عز الدين الجمل وتشييعه بموكب قل ان شهدت بيروت له مثيلا وقد سار على رأس المشيعين عبدالله اليافي رئيس الوزراء السابق آنذاك وتسابق سائر زعماء «الصف الوطني» الى المشاركة في هذه الجنازة لحاقا بموجة العطف الشعبي المتعاظم على العمل الفدائي . واشترك اميل مكرزل وأهالي الكحالة في استقبال جثمان الجمل عند مروره بالبلدة وقرعوا له أجراس الحزن .

وفضلا عن الاهمية الرمزية لجنازة خليل عز الدين الجمل باعتبارها تكريما للبطولة والفداء ، فانها كانت عملا سياسيا هاما من حيث انها اتخذت طابع تحذير موجه من الجماهير الى السلطة اللبنانية ضد المساس بالعمل الفدائي والتعرض له . هذا ايضا كان طابع المظاهرة الضخمة التي جرت في الثالث من ايار استنكارا للاستعراض العسكري الذي قرر العدو اقامته في القدس احتفالا بقيام دولة اسرائيل .

وهكذا فانه عندما بدأ العدو يشن اول اعتداءاته على الحدود اللبنانية (حولا ، ميس الجبل ، المجيدية) ردا على انطلاق عمليات الفدائيين منها ، وتحريضا للدولة على ضربهم بالقوة وجدت الدولة نفسها في وضع حرج . فهي من جهة لا تريد الاصطدام بالعدو ، ومن جهة ثانية تخشى مجابهة العمل الفدائي لئلا تستفز الجماهير اللبنانية المؤيدة له ، فالجماهير اللبنانية التي أصيبت بطعنة مريعة في كبريائها القومية يوم الخامس من حزيران والتي كبتت مشاعرها القومية أعواما طويلة بعد انتفاضة عام ١٩٥٨ ، هذه الجماهير باتت تنظر الى العمل الفدائي وكأنه مفتاح خلاصها من كافة المعضلات الاجتماعية والقومية التي كانت تعيشها .

كان الالتحاق بقواعد الفدائيين في الاردن احد أوجه التعبير عن الحماس البالغ للعمل الفدائي . الا ان دخول الفدائيين لبنان جعل التفاعل مع النضال الفلسطيني يتخذ وجهة خاصة لم تكن

مطروحة في السابق : لم تكن مطروحة عام١٩٣٦ ، ولا عام١٩٤٨ ، كما أنها لم تكن مطروحة على صعيد جماهيري واسع بعد ان تجردت انطلاقة العمل الفدائي عقب حرب حزيران .

● العمل الفدائي والتفاعلات الداخلية

لقد اصبح العمل الفدائي الان قضية «داخلية» تتطلب من الدولة اتخاذ موقف حاسم : اما تصفية العمل الفدائي بالقوة ، مع ما يجر ذلك من مضاعفات داخلية وعربية . واما التلاؤم مع مقتضيات وجود الفدائيين في اراضي لبنان ، اي مع مقتضيات المجابهة الجدية مع العدو . ان الطبقة الحاكمة ستبلور اجابتها على هذه المعضلة في ممارسات تصل الى ذروتها في اتفاق القاهرة ٣-١١-١٩٧١ الذي سنتحدث بالتفصيل عنه فيما بعد .

وكما كانت هذه القضية مطروحة على الطبقة الحاكمة ، فانها كانت ايضا مطروحة ربما بنفس الالحاح على الحركة الوطنية في لبنان . ولم يكن على فصائل الحركة الوطنية ان تجد حلا سهلا لهذه المعضلة فمعظم هذه الفصائل كان غارقا كما ذكرنا في النضال الاقتصادي البحت ، وكانت هذه الفصائل تتعمد طمس قضايا النضال ألقومي باعتبارها تزكي الصراع الطائفي وتعمقه ، وبالطبع فان الاهتمام بالقضية الفلسطينية ضمن هذا التحليل لم يكن يزيد عن كلمات كبرى تقال في المناسبات التاريخية الهامة مثل وعد بلفور او ذكرى التقسيم او اعلان دولة اسرائيل الا ان هذا الواقع لم يكن ينطبق على حزب البعث في لبنان الذي أهله فكره الوحدوي الاشتراكي لرؤية الابعاد الحقيقية للعمل الفدائي بصورة عامة ولتمركزه فوق الاراضي اللبنانية بصورة خاصة . لذلك فقد دخل «البعث» حوارا مع منظمة فتح في مطلع عام ١٩٦٨ من اجل اقامة جبهة مساندة للعمل الفدائي تأخذ على عاتقها الارتقاء بنضال الجماهير اللبنانية الى مستوى يتناسب مع المرحلة التي دخلتها

القضية الفلسطينية مع العمل الفدائي . ان الحوار الذي بدأ في ذلك التاريخ المتقدم اظهر اختلافا في الرأي والاجتهاد حول طبيعة العلاقة بين النضال الوطني الفلسطيني وبين النضال الوطني في لبنان ، وهذا الاختلاف سوف يظهر بوضوح اكثر فيما بعد ، غير ان الاختلاف لم يصل الى درجة من الحدة تعطل امكانية العمل المشترك . ولم يلبث هذا الحوار ان اتسع لكي يضم أطرافا جديدة فاشترك فيه الحزب التقدمي الاشتراكي ، واتحـــاد الشيوعيين اللبنانيين ـ الذي اعلن تأسيسه في نفس الفترة ـ والحركـــة اللبنانية لمساندة فتح ـ او هكذا دعيت فيما بعد ـ وفريق مـــن المستقلين التقدميين وقد دعي للمشاركة فيه ايضا الحـــزب الشيوعي اللبناني وحركة القوميين العرب ، غير انهما امتنعا عن الاستمرار دون ايضاح الاسباب ، وكانت حصيلة هذا الحوار الذي استمر مدة اشهر ولادة الجبهة أللبنانية لمساندة الثورة الفلسطينية التي عدل اسمها فيما بعد الى «الجبهة اللبنانية لمساندة فتح» .

لقد كان ثمة وجهتي نظر بصدد تكوين الجبهة وبصدد هيكلها التنظيمي . فريق كان يؤمن بحصر نضالها في اطار الدعم المالي والاعلامي المحدد النطاق للعمل ألفدائي وفريق آخر كان يـــرى ضرورة بناء الجبهة لكي تكون معبرا عن استجابة النضال الوطني في لبنان لمقتضيات الثورة الفلسطينية . ويمكننا ان نلاحظ هذا التباين في وجهات النظر في مقدمة مشروع برنامج عمل الجبهة الذي وضعه «ألبعث» والذي أقر من مختلف أطرافها فيما بعد . تقول المقدمة :

«اما في مجال تحديد برنامج عمل اللجان (لجان الجبهة) فقد وضعنا هذا المشروع الذي راعينا في وضعه المنطلقات التي ضمنتها الجبهة بيانها السياسي . هذا مع العلم بأننا نعتقد ان دعم الثورة يجب ان يتصاعد باستمرار بحيث ينتقل من طور تقديم العـــون المادي والاعلامي والسياسي المحدود الى طور تحويل الجبهة الـــى اداة لتفاعل النضال الوطني في لبنان مع الكفاح الشعبي المسلح

في فلسطين وذلك بتحويل المجتمع اللبناني الى مجتمع حرب» (١٠-٢-١٩٦٩) .

وعلى الرغم من ان الحزب الشيوعي وجماعة «الحرية» لم يدخلا الجبهة ، فان الحوار والاتصال بها لم يتوقف في اطار العمل لتنسيق النضال في ميدان التفاعل مع الثورة الفلسطينية ايمانا بأن خلق اجماع وطني حول هذه القضية هو الطريق الى ارتقاء العمل الوطني في لبنان الى المستوى الجديد الذي طرحه العمل الفدائي .

نقطة الاختلاف الاخرى في النظرة الى الجبهة كانت تحديد توقيت اعلانها ، فقد كان هناك وجهتا نظر . فالحزب التقدمي الاشتراكي ومنظمة فتح كانا يميلان الى تأخير اعلان الجبهة ريثما يتاح للحزب تثقيف قواعده وتوجيهها في اطار دعم العمل الفدائي .

اما البعث وبعض الفئات الاخرى فقد كانوا يميلون الى اعلان الجبهة بعد فترة قصيرة من بدء عملها .

وبعد مناقشات مطولة اتفق على تأجيل اعلان الجبهة الى ان تستكمل الجبهة تشكيل لجانها التنسيقية على مستوى المحافظات والمناطق والقطاعات الشعبية المختلفة . ولقد استغرق تشكيل هذه اللجان زمنا طويلا الى ان فاجأ عدوان المطار الجبهة والحركة الوطنية دون ان يكونوا على أهبة الاستعداد له .

● عدوان ٢٨ كانون

حدث العدوان في ٢٨ كانون الاول ١٩٦٨ اذ نزلت في مطار بيروت قوة اسرائيلية صغيرة بواسطة طائرات الهليوكوبتر ودمرت ١٣ طائرة تابعة لشركة طيران الشرق الاوسط . استغرقت عملية التدمير هذه ٤٠ دقيقة تقريبا غادرت بعدها المطار دون اي اشتباك . قالت سلطات العدو ان هذا الحادث كان ردا على استخدام فدائيين

تابعين للجبهة الشعبية مطار بيروت كمركز انطلاق لعملية خطف طائرة اثينا . ولكن السبب الحقيقي كان ان اسرائيل تشعر بوخز عمليات الفدائيين المنطلقة من جنوب لبنان .

هذا الحادث كان فضيحة كبرى بالنسبة للنظام القائم وللطبقة الحاكمة ، وأثار الشعور الوطني لدى كافة اللبنانيين . اجتمعت الجبهة بعد العدوان وقررت الدعوة الى تظاهرة استنكارا لتخاذل السلطة الحاكمة وذلك صباح ٢ كانون الثاني ١٩٦٩ . غير ان التظاهرة فشلت بسبب غياب او تراجع بعض الفئات الوطنية عن المشاركة فيها .

وفي جلسة عقدت لتقييم اسباب فشل المظاهرة قدم «البعث» مذكرة جاء في معرض تفسيرها لفشل المظاهرة اسباب كثيرة بينها ما يلي :

١ ـ تعيين نطاق عمل الجبهة : لقد حدد البيان السياسي للجبهة نطاق مساندتها للثورة الفلسطينية في مجالات ضيقة ، كجمع المال والدعاية والتبشير السياسي وهذا ما تستطيع ان تقوم به الكثير من الجمعيات والهيئات التي لا ترتدي اعمالها طابعا نضاليا . اما الجبهة فقد كان من المفروض ان تكون اداة نضالية تحقق التفاعل العميق للحركة الوطنية في لبنان مع الثورة الفلسطينية . وهذا يعني على وجه التحديد ان تكون الجبهة اداة نضال لخلق المجتمع اللبناني المحارب مع ما يطرحه ذلك من اهداف فرعية وقضايا جزئية .

٢ ـ التأخر في اعلان الجبهة : لقد توفرت عوامل وظروف مؤاتية لاعلان الجبهة قبل هذا الوقت بكثير . لو حدث هذا من قبل لكان بامكان الجبهة ان تمسك بزمام الحماس الجماهيري للثورة الفلسطينية وان تصبه في اقنيتها . بهذا يمكن استيعاب الاندفاع الشعبي لتأييد الثورة الفلسطينية في اطار تنظيمي نضالي قادر وحده على تسديد ضربات موجعة ورادعة الى كل من يعترض مسيرة العمل الفدائي على الاراضي اللبنانية .

ان هذا التباين ، كما نلاحظ ، لا يشمل تقصيرا نضاليا فحسب ، وانما النظرة الى طبيعة العلاقة بين الثورة الفلسطينية وبين الحركة الوطنية في لبنان .

لقد دخلت «فتح» لبنان حاملة شعار «عدم التدخل في الشؤون اللبنانية» ، وترجمة هذا الشعار بشكل ملموس ، كانت تعني انتزاع حرية العمل الفدائي فوق الاراضي اللبنانية بدون تغيير الوضع الراهن وبدون تبديل بميزان القوى السياسية في لبنان .

ان «فتح» كانت تبرر هذا الشعار باستراتيجية التوجه نحو فلسطين فالالتفات نحو القضايا الداخلية والدخول في الصراعات الناشئة سيؤدي الى انشغالها عن مهمة التحرير كما ان «فتح» كانت تقدم تبريرا تكتيكيا لهذا الشعار ايضا . فالثورة الفلسطينية لا تملك قوى ذاتية كافية لمجابهة الانظمة العربية ، لذلك فهي مضطرة الى تقديم تطمينات لهذه الانظمة كي لا تبادر الى فتح معارك مبكرة ضد الثورة الفلسطينية تجهض انطلاقتها وهي لا تزال في المراحل النضالية الاولى .

ان هذه النظرة تفسح المجال للملاحظات الآتية :

- ان «فتح» لم يكن يسعها الا ان تطرح شعار «عدم التدخل في الشؤون اللبنانية» وذلك بحكم قطرية منطلقها الفكري والسياسي وتكوينها التنظيمي . وأية محاولة لنقض الشعار دون الاعتراف بالترابط بينه وبين قطرية «فتح» تقود آخر الامر الى تبنيه عمليا وواقعيا حتى وان اراد صاحب المحاولة رفضه لفظيا .
- ان تطبيق هذا الشعار في لبنان كان يلزم «فتح» بعدم الدخول في تحالف متميز مع الحركة الوطنية في لبنان وإلا اعتبر ذلك عملا موجها ضد الطبقة الحاكمة تستغله هذه الطبقة ضد فتح بحجة انها تتدخل في الشؤون اللبنانية .
- ان هذه الاعتبارات كانت تظلل تحفظ «فتح» حيال اي اعلان مبكر قد يؤدي الى احراج في علاقتها مع سائر الاطراف

الاساسية الاخرى التي بدأت تعقد معها تحالفات تكتيكية قصيرة الامـــد .

حتى ان رشيد كرامي مثلا انشأ لجانا علنية لدعم العمـــل الفدائي وأخذ ينشر صور الشيكات التي تدفع للفدائيين بواسطته قبيل اسابيع من بدء معارك السلطات اللبنانية مع الفدائيين .

● الاصطدام العلني بين السلطة والفدائيين :

ان طبيعة العلاقة بين العمل الفدائي والحركة الوطنية فـــي لبنان ما لبثت ان تبدلت بعد ان اصبح الوجود الفدائي في جنوب لبنان ظاهرة لم يعد بوسع النظام اللبناني التغاضي عنها .

ففي شهر كانون الثاني من عام ١٩٦٩ حاصرت السلطـــات اللبنانية بعض مجموعات الفدائيين في الجنوب في نفس الوقت الذي كانت تشن فيه حملة اعتقالات واسعة بين أنصار العمـــل الفدائي . ولم يلبث الحصار ان رفع بعد ضغوط شعبية وعربية ولكنه عاد ليتجدد بعد أسابيع قليلة . ففي التاسع عشر من نيسان حاصرت قوات السلطة مجموعة من الفدائيين في الجنوب . وردا على هذا الحصار تداعت كافة أطراف الحركة الوطنية اللبنانية الى عقد اجتماع تقرر فيه الدعوة لمظاهرة شعبية تأييدا للعمل الفدائي ومطالبة بحريته . ولقد ظهر في الاجتماع التباين في وجهـــات النظر حول ضرورة ربط النضال لدعم العمل الفدائي بالنضال ضد الحلول السلمية . مما أدى الى الاكتفاء بحصر البيان الذي دعي فيه الى المظاهرة في نطاق دعم العمل الفدائي .

أدت مظاهرات ٢٣ نيسان والاصطدامات التي جرت فيها بين المتظاهرين العزل وقوات السلطة الى ازمة سياســـية محكمة ، فاستقالت الحكومة وأكد رشيد كرامي الرئيس المستقيل انه من الضروري الاتفاق على موقف موحد ازاء العمل الفدائي ، فامـــا القبول به واما رفضه . والحقيقة انه لم يكن هناك حاجة الى طرح

هذا السؤال . فالطبقة الحاكمة ـ ما عدا استثناءات قليلة وفردية ـ كانت مجمعة على رفض العمل الفدائي ، او على الاقل كانت مجمعة على رفض الوجود العلني للعمل الفدائي : «ان ضرورات المصلحة اللبنانية ، كانت تقضي بأن تبقى حركة الفدائيين في ارضنا سرية لئلا تجد اسرائيل ذات المطامع بأرضنا ومياهنا حجة تتذرع بها لتمارس سياستها التوسعية» (١) .

غير ان انتفاضة ٢٣ نيسان طرحت وجود العمل الفدائي وحريته في لبنان طرحا حاسما .

لم يكن باستطاعة الطبقة الحاكمة ان تحسم الصراع مع الفدائيين ومؤيديهم بالقوة والقمع لاسباب متعددة يأتي فيما بينها:

● ان الحركة الوطنية خاضت معركة ٢٣ نيسان موحدة بحيث برز ثقلها في مجابهة السلطة . ولقد كان لدورها في هذه المعركة أهمية كبرى في خلق حالة نهوض جماهيري تجلت بالتفاف قطاعات واسعة من الشعب حول الاحزاب اليسارية وفي تجاوب الجماهير الوطنية مع كافة المعارك التي خاضتها الحركات الوطنية تحت شعار حرية العمل الفدائي .

غير ان مما أضعف وحدة الحركة الوطنية طغيان الصراعات بين التنظيمات الماركسية اللبنانية (الحزب الشيوعي ، منظمة الاشتراكيين اللبنانيين ، اتحاد الشيوعيين ، جماعة لبنان الاشتراكي) على امكانية العمل المشترك فيما بينهم مما أدى الى انسحاب الحزب الشيوعي ومن قبله الحزب التقدمي الاشتراكي من التجمع ومن ثم الى تأزم التناحر بين الفريقين : الشيوعيين والتقدميين الاشتراكيين من جهة والتجمع من جهة اخرى .

ومع ذلك فان انتفاضة ٢٣ نيسان جعلت القوى التقدمية قادرة على استقطاب الجماهير وتعبئتها . مما وفر لها بعض الحماية من قمع السلطة وبطشها .

---

١ ـ بيار الجميل ، ٥ نيسان ١٩٧٠ .

● الضغوط العربية التي تجلت في اعمال استنكار وتضامن واسعة النطاق اجتاحت العواصم العربية ، وجعلت بعض حكوماتها تضغط على السلطة اللبنانية لردعها عن السير في سياسة قمع العمل الفدائي والقوى الوطنية المؤيدة له .

ولم يكن بوسع الطبقة الحاكمة ان تتجاهل تلك الضغوط ، اذ ان ذلك سوف ينعكس مباشرة على علاقات لبنان الاقتصادية مع الدول العربية ومن ثم يؤثر تأثيرا سلبيا على الارباح التي تجنيها عبر هذه العلاقات .

ان الغموض الظاهري في سياسة السلطة اللبنانية ازاء العمل الفدائي استمر سبعة اشهر تخللتها حملة معنوية مارسها رئيس الجمهورية ضد التسليم «بالامر الواقع» ــ اي بالوجود الفدائي في لبنان ــ الذي ينطوي على تفريط بالسيادة والسلامة، وباستشارات أجراها مع النواب حول السماح للفدائيين بالعمل في لبنان كان القصد منها اظهار وحدة الطبقة الحاكمة في رفضها «للامر الواقع» وباعتداءات اسرائيلية متكررة على قرى جنوب لبنان ، كما نفذت أيضا مؤامرة أطلاق صواريخ موقوتة على مكاتب منظمة التحرير في بيروت ذكر انها من تدبير الاستخبارات الاسرائيلية .

بعد هذا الحادث بحوالي عشرة ايام قامت انتفاضة تشرين الاول التي نجمت عن محاولة جديدة لضرب العمل الفدائي وتصفيته في الجنوب بعد ان اعتقدت السلطات اللبنانية أنها خلقت جوا مناسبا لهذه الغاية .

بين ٢٣ نيسان و٢٤ تشرين الاول ازدادت قوة الحركة الوطنية غير ان دورها في انتفاضة تشرين لم يكن موازيا من حيث الاهمية لدورها في ٢٣ نيسان ويعود ذلك بالدرجة الاولى ألى الانقسام الذي تعرضت له والى ان انتفاضة تشرين اخذت طابع المعارك العسكرية بين قوات الثورة الفلسطينية وقوات السلطة اللبنانية اما النضال الجماهيري فكان دوره المرتبة الثانية من حيث الاهمية خلافا لما حدث في انتفاضة ٢٣ نيسان .

انتهت معارك ٢٤ تشرين باتفاقية القاهرة وبروتوكول بيروت، التي سلمت فيها السلطات اللبنانية «بالامر الواقع» بعد ان تبين انه لا يمس السيادة والسلامة .

● اتفاق القاهرة

ان تحليلا عميقا لاتفاق القاهرة يدلنا على ان التسليم كان موقتا اذ ان هذا الاتفاق الذي اعتبر كسبا كبيرا لحركة المقاومة كان في الحقيقة فخا نصب لها في ضوء معرفة المسؤولين اللبنانيين بأوضاع العمل الفدائي الذاتية .

لقد أنبثق اتفاق القاهرة عن نظرية «الجيش الحليف» التي تقول بأن العمل الفدائي يجب ان يعامل معاملة جيش الدول الحليفة الذي يتمركز في الاراضي اللبنانية للمساهمة في القتال ضد عدو مشترك .

وبموجب هذا الاتفاق فقد حصر العمل الفدائي في قواعد مكشوفة في منطقة العرقوب ، وتركت مهمة حمايتها على عاتقه ، وانسحبت القوات المسلحة الى خطوط خلفية لكي تترك الفدائيين وجها لوجه امام جيش اسرائيل .

لقد وضع اتفاق القاهرة العمل الفدائي في مأزق دائم ومستمر . ونبع هذا المأزق بالدرجة الاولى من الخطأ في تحليل وفهم الظروف المتشابكة والمعقدة التي كان يعيشها العمل الفدائي.

فمن زاوية الصراع مع السلطة اللبنانية كانت العرقوب «منطقة محررة» بالفعل خاض العمل الفدائي معركة استخدم فيها كافة اسلحته وقواه العسكرية والسياسية من اجل تحريرها ونجح في ذلك .

اما من زاوية الصراع مع الجيش الاسرائيلي فقد كانت منطقة العرقوب ساقطة عسكريا يستطيع دخولها بسهولة وتدمير قواعد الفدائيين فيها . وهذا ما ثبت فيما بعد .

ومن زاوية الصراع مع السلطة اللبنانية لم يكن خطأ كبيرا ان يبدأ الفدائيون في تكوين «جيش العصابات» الذي يتولى التمركز في المنطقة المحررة وحمايتها ، ومن ثم الانطلاق منها للمساهمة في تحرير المناطق الاخرى التي لم تستكمل تحررها . اما من زاوية الصراع مع اسرائيل فان الانتقال الى بناء القواعـــد والتنظيمات المكشوفة واطلاق أوهام خاطئة حول قدرة مقاتلي الجنوب علـــى القيام بمهمة حماية الحدود ، اي مهمة حماية «الجيش» فان هذا كان ايضا خطأ كبيرا .

وهكذا فان العمل الفدائي اعتبر ، من حيث السلوك العسكري، اتفاق القاهرة والنتائج التي تلته انتصارا على «العدو» اي علـــى السلطات اللبنانية . في حين ان تصوره السياسي كان يؤكد دوما على ان العدو هو اسرائيل ، في حين كانت تشدد كبرى المنظمات الفدائية على ضرورة عدم التدخل في الشؤون اللبنانية ..

وفي ظل الشعور الخاطيء والواهم بالانتصار على «العـدو» اهمل العمل الفدائي اهمالا مريعا ، شن نضالات متعددة علـــى الجبهات السياسية والعسكرية من اجل تعزيز كافة التنازلات التي انتزعها في اتفاق القاهرة ، وتحويلها الى مكاسب حقيقية :

● تخلى العمل الفدائي عن النضال لتأكيد مسؤولية النظام اللبناني في حماية الحدود من ضربات العدو الثأرية . وتوقفت كافة النضالات ذات الطابع الاستراتيجي والتكتيكي التيتفضح امام اللبنانيين كافة اهمال النظام اللبناني طوال ربع قرن تقريبا في اللبنانيين كافة اهمالالنظام اللبنانيطوال ربعقرن تقريبا في امداد الجيش بالعدد والعتاد الذييجعلهقادرا على حماية الارض والوطن.

● ولم يربط الفدائيون بين تواجدهم في منطقة العرقـــوب وبين ضرورة النضال لتبديل نمط العلاقات الاجتماعيةوالاقتصادية واحلال نمط جديد من العلاقات يتماشى مع طبيعة المرحلة التي تمر فيها الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية في لبنان . لقد كان بامكان الفدائيين ، او الحركة الوطنية اللبنانية مثلا ان تنشـــىء تعاونيات للانتاج وللتسويق في مناطق العرقوب بحيث يرتفعمستوى

معيشة المزارع ويصبح اكثر ارتباطا بالارض واحتفاظا فيها .

● وأهمل الفدائيون مهمة تعميق الوعي والممارسات الديمقراطية بين ابناء العرقوب ، فكان بالامكان تكوين لجان القرى تطرح من خلالها المشاكل التي تواجه الثورة لكي تضع هي الحلول لهذه المشاكل . ومن ثم تهيء هذه لكي تتحول الى «سلطة شعبية» في كل منطقة تكون بديلا عن الاجهزة الادارية الحكومية التي تعطلت عمليا سلطتها وباتت غير فعالة في نظر المواطنين .

وأهمل العمل الفدائي واجب تبديل الظروف المعيشية والسكنية بحيث تهيء ابناء الجنوب لمجابهة ضربات العدو الانتقامية . فتدريب الاهالي وتسليحهم مورس على نطاق محدود ، وغالبا بعقلية الكسب الذاتي للمنظمات ، ومن خلال التناقض فيما بينها. كذلك لم يحفز الاهالي ولا قدمت لهم يد العون بصورة مرضية لبناء الملاجىء والتحصينات. ففي بلدة بنت جبيل مثلا التي يبلغ عدد سكانها حوالي ١٥ الفا بنيت ملاجىء قليلة تتسع لبضعة مئات من الاشخاص .

لقد طرحت في تلك الفترة فكرة اقامة سلطة شعبية في الجنوب من خلال لجان محلية تتولى ادارة منطقة العرقوب في اطار ما سمي «المؤتمر الوطني لدعم الجنوب» بحيث تتولى هذه اللجان سد الثغرات التي اشرنا اليها وبحيث تتولى المبادرة الى تحويل مناطق تمركز وتحرك الفدائيين الى مناطق مهيئة لمجابهة العدو ، وبحيث تتولى توعية ابناء الجنوب على اهمية الاعتماد على الذات بعد أن انكشف تخاذل النظام اللبناني وعجزه عن حمايتها . ولكن فكرة المؤتمر تفهت وحوربت ، وكان في طليعة المحاربين بعض أطراف الحركة الوطنية التي باتت تتصرف وكأن الوقت قد حان للاطاحة بالنظام القائم في لبنان ، وان كل الجهود يجب ان تنصرف لتعميم ما حدث في منطقة العرقوب على مستوى القطر بأكمله وقد تغافلت تلك القوى عن مدى تأثير ما يجري في العرقوب نفسه على اوضاع الحركة الوطنية في سائر انحاء لبنان.

فتحويل العرقوب الى ارض حقيقية لمجابهة العدو كان كفيلا بتعزيز ثقة المواطنين وآمالهم بالعمل الفدائي وكان كفيلا برفع حرارة النضال ضد العدو وضد سائر حلفائه الى ابعد الحدود . اما ترك منطقة العرقوب تحت رحمة العدو ، فقد كان كفيلا ليس بانخفاض مستوى الحماس الجماهيري للعمل الفدائي فحسب ، وانما كان كفيلا أيضا بتأليب ابناء الجنوب انفسهم ضد العمل الفدائي .

● فشل أسلوب «ضرب العمل الفدائي من الظهر»

وما حدث في الجنوب كان الامر الثاني ، فبعد توقيع اتفاق القاهرة ، اشتدت هجمات العدو على القرى التي تمركز فيها الفدائيون ، كما اشتدت أيضا التحركات الرجعية المعادية للعمل الفدائي التي تدل على مدى ارتباط القوى اليمينية بالعدو . فبعد شهر تقريبا من توقيع اتفاق القاهرة ، شن العدو هجوما كبيرا على قواعد الفدائيين في الجنوب ولكن الفدائيين اصطدموا بقواته وكبدوها بعض الخسائر .

ومع فشل هذا الهجوم في تحقيق اهدافه نشطت القوى اليمينية المتطرفة وفي طليعتها حزب الكتائب الى اثارة قواعدها الانعزالية ضد العمل الفدائي ولقد وصل نشاطها التآمري الى ذروته في نهاية شهر اذار من عام ١٩٧٠ عندما قامت بالتعاون مع المكتب الثاني اللبناني بارتكاب مجزرة الكحالة مما أدى الى اشتباكات في اكثر من منطقة من مناطق لبنان والى سقوط عدد من القتلى . وعلى الرغم من الجو المحموم الذي ادت اليه مجزرة الكحالة وخاصة بين قواعد المنظمات الفدائية نفسها ، استطاعت هذه المنظمات ان تمارس درجة عالية من ضبط النفس مما جعلها تكسب الجولة سياسيا ضد قوى اليمين وعززت هذا الانتصار السياسي بمظاهرات صاخبة ضد جوزيف سيسكو اثناء زيارته للتباحث مع بعض المسؤولين العرب في امكانية تحقيق الحل

السلمي .

ان فشل مجزرة الكحالة كان اعلانا لفشل أسلوب « ضرب العمل الفدائي من الخلف» وبواسطة قوى محلية ولقد كان من العوامل التي مكنت العمل الفدائي من تحقيق انتصاره ، ان اطراف الطبقة الحاكمة لم تقف موقفا موحدا كما حدث في معارك نيسان وتشرين . فظهر بوضوح ان الاداة التي استخدمت من اجل افتعال هذه المعركة كانت متمثلة بتحالف الكتائب ــ المكتب الثاني . اما القوى اليمينية الاخرى ــ فقد بدت أقل حماسا لخوض هذه المعركة تاركة المكتب الثاني في واجهة العداء للعمل الفدائي وبالتالي للمشاعر الوطنية . وهذا ما أدى ألى الحاق خسائر فادحة بالجناح الشهابي للحكم استفادت منها اجنحة الحكم الاخرى التي ناصبته العداء لسنوات طويلة محاولة الحلول محله في الهيمنة على مؤسسات الدولة .

لقد كان من نتائج معركة الكحالة ان أتضح انه ليس من السهل القضاء على العمل الفدائي اعتمادا على قوى محلية ، خاصة بالاعتماد على قوى المكتب الثاني حيث ان موجة العداء له بين المواطنين كانت اقوى من اي اعتبار آخر . لهذا بوشر بالاعداد لضرب العمل الفدائي بأسلوب آخر . فلقد ذكر بيار الجميل في تصريح ادلى به لجريدة «العمل» ونشر في ١٤ نيسان ١٩٧٠ : «وان كان اعداء لبنان والديمقراطية اللبنانية يتصورون وهم يتكئون على قوى خارجية بأننا وحدنا في النزال ، فهم في وهم وضلال ، فنحن حتى الان نحاول تدبير الامر بامكاناتنا ، ولكن متى فرض علينا الخيار بين حياة الذل وأية طريقة اخرى ، فسنلجأ حتما الى هذه الطريقة الاخرى » .

● نقطة التحول

بعد هذا التصريح بشهر تقريبا اي في ١٢ ايار من العام نفسه

شن العدو هجوما ضخما على منطقة العرقوب استخدم فيه كافة قواه (الطيران ، القصف المدفعي ، الآليات ، المشاة) . وبقيت قوات العدو زهاء ٣٦ ساعة في منطقة العرقوب انصرفت خلالها الى تدمير مواقع وقواعد الفدائيين والى ارهاب الاهالي المتعاونين معهم .

المنظمات الفدائية الرئيسية ـ فتح والصاعقة بشكل خاص ـ سحبت قواها من المعركة . ولم تجر خلال هذا الهجوم الاسرائيلي الا معارك محدودة برز فيها مقاتلو «جبهة التحرير العربية» الذين استشهد منهم اربعة في معركة واحدة ثلاثة منهم من مدينـــة طرابلس اللبنانية وواحد من مدينة الموصل في العراق .

والجدير بالذكر انه في نفس الوقت الذي كان العدو يشن فيه هجومه على العرقوب ، كان حزب الكتائب يقيم مهرجانا ضد العمل الفدائي في منطقة الاشرفية في بيروت . وفي نفس الوقت الذي كان فيه جنود العدو يوزعون في قرى الجنوب قصاصات كتب عليها : «أطردوا المخربين .. لتعيشوا بأمن وسلام» . كان رشاد سلامه احد خطباء المهرجان يهدر قائلا : «لبنان كله يجب ان يتكلم . ولبنان كله يجب ان يتحرك ، ولبنان كله يجب ان ينهض لاسترداد ارضه وهويته وسيادته وكرامته ..»

وبالطبع فان المطلوب كان استرداد الارض من الفدائيين لا من اسرائيل .. ان انسحاب العمل الفدائي من منطقة العرقوب وترك قراها للعدو دون مقاومة جدية أدى الى ردة فعل سلبية قوية ضد العمل الفدائي وما لبث موسى الصدر ان التقط هذه الفرصة لكي ينتزع المبادرة من العمل الفدائي ومن الحركة الوطنية في لبنان في تحريك قضية جنوب لبنان . فدعا الى اضراب موهت خلاله هوية المسؤول الحقيقي عن بقاء الجنوب دون حماية او رادع يمنع قوات العدو من دخوله بسهولة . كما عاد موسى الصدر الى طرح قضية الجنوب كقضية «منطقة مهملة ومتخلفة» واضعا صفتها الاساسية كمنطقة مجابهة مع العدو في المرتبة الثانية او الثالثة من الاهمية ، متجاهلا الربط المباشر بين الامرين .

لقد كان تجاوب ابناء الجنوب مع دعوة الصدر تجاوبا ملحوظا. فعندما تركهم الفدائيون يواجهون وحدهم الاسرائيليين ، لم يجدوا ما يفعلونه سوى الفرار وترك قراهم وأرضهم سائبة للعدو . وخلال ايام قليلة اقفرت قرى العرقوب وبنت جبيل من السكان الذين تدفقوا على العاصمة وعلى صيدا وغيرها من المدن البعيدة نسبيا عن الحدود . وهكذا فان دعوة الصدر جاءت في وقت نفسي مناسب انهارت فيه الآمال التي كان ابناء الجنوب يعلقونها على العمل الفدائي . اما الدولة فلم يكونوا يؤمنون بها في الاصل. هذا فضلا عن انه لم يكن وقتا مناسبا للحركة الوطنية والمنظمات الفدائية لكي تقنع ابناء الجنوب ، الذين ذاقوا لاول مرة طعم الحرب الحقيقية ان الدولة هي المسؤولة الحقيقية عن حماية الحدود ، وان مهمة العمل الفدائي هي ازعاج وانهاك العدو فحسب. بل ان عملاء السلطة وأجهزة النظام وأبواقه انصرفوا طوال وجود الفدائيين في الجنوب الى تحريض الجنوبيين ضد المقاومة، وبدأت حملة مكثفة لتأليب الجماهير الجنوبية خاصة واللبنانية عامة ضد العمل الفدائي .

ان عدوان ١٢ ايار ومهرجان الكتائب واضراب موسى الصدر الذين صادفوا في وقت واحد تقريبا حققوا نصف انقلاب في الرأي العام اللبناني ضد العمل الفدائي .

● مشروع روجرز

ان هذا الانقلاب ما لبث ان اكتملت معظم فصوله بعد اعلان القاهرة قبول مشروع روجرز في الثالث والعشرين من تموز . فلكي تسهل قبول الجماهير العربية لهذا الموقف ، انصرفت كافة الاجهزة المرتبطة بالقاهرة الى التقليل من اهمية العمل الفدائي والتركيز على محدوديته في مجابهة العدو ، مشددة على المزاعم التي روجتها لتغطية هزيمة حزيران حول استحالة مجابهة

الامبريالية الاميركية وضرورة الخوض في مناورات سياسية واسعة النطاق من اجل «تحييد» الولايات المتحدة وزرع التناقضات والبلبلة في صفوف العدو . ان هذه الحملة الاعلامية المكثفة التي شنتها اجهزة القاهرة ساهمت في بلبلة مؤيدي العمل الفدائي الذين كانوا يؤمنون بحماس ان العمل الفدائي هو طريق التحرير. **وساهم في انجاح هذه البلبلة ايضا رد الفعل المتطرف الذي صدر عن بعض المنظمات الفدائية ضد القاهرة** مما ادى الى تباعد بين جماهيرها في لبنان ومجمل العمل الفدائي وما تبقى من الحماس والايمان الشديد بالعمل الفدائي لدى الجماهير اللبنانية ما لبث ان اهتز اهتزازا شديدا على اثر مجزرة ايلول والمجازر الوحشية المتتالية التي ارتكبها النظام الاردني ضد العمل الفدائي . فلقد ضعفت الثقة بالعمل الفدائي وضعفت الثقة بقيادته السياسية التي تستنهض همم الجماهير العربية ضد خيانة حكام الاردن ، ثم تعود الى مصافحتهم ومصالحتهم ، لكي تعود الى اتهامهم بالعمالة والخيانة ثم تعود الى التحاور معهم تمهيدا لمصالحتهم من جديد .

وهكذا نجد ان التطورات التي رافقت وتلت عدوان العرقوب سواء على الصعيد المحلي ام العربي ، ادت الى دخول العمل الفدائي مرحلة ركود وانحسار . فتجاوب الجماهير معه بات متدنيا ، وقدرته على التحرك العسكري عبر الاراضي اللبنانية باتت شبه معدومة . وتستغل الطبقة الحاكمة في لبنان هذه الاوضاع لكي تبتز من العمل الفدائي تنازلات متواصلة في شتى الميادين والمجالات تحت وطأة تهديدات ضمنية بتكرار مجازر الاردن ، وتجد المنظمات الفدائية نفسها مضطرة الى القيام بهذه التنازلات حيث ان اوضاعها الذاتية لا تسمح لها فتح معركة واسعة النطاق مع النظام اللبناني وحيث ان لبنان يوفر لها مجالا حيويا للتحرك السياسي والاعلامي لا تجده في اي قطر عربي آخر .

ان اوضاع العمل الفدائي في لبنان كانت موضع اهتمام العديد من الذين شاركوا في المجلس الوطني الفلسطيني الثامن . وعلى

الرغم من ان تقرير اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير اغفل الاشارة الى هذه الاوضاع ، غير ان رئيس اللجنة السياسية العليا للفلسطينيين في لبنان وبعض اعضاء المجلس قدموا بعض الملاحظات والاقتراحات بصددها والملاحظات التي قدمت على اهميتها ركزت على الاخطاء الفردية التي يرتكبها رجال المقاومة والتي تستخدم من قبل الرجعية اللبنانية في الحرب النفسية ضد العمل الفدائي . وقفزت هذه الملاحظات فوق ارتباط هذه الاخطاء بعلل ذاتية كامنة في صلب حركة المقاومة نفسها . اي انه من هذه الزاوية يمكننا القول ان مشكلة العمل الفدائي في لبنان هي مشكلة مع نفسه بالدرجة الاولى كما قال الاستاذ ميشيل عفلق «ان مشكلة العروبة في لبنان هي مشكلتها مع نفسها» .

ان الوضع اللبناني بسبب حساسيته المفرطة وبسبب تمركز ونشاط أكثر القوى المعادية للثورة العربية فيه ، يسلط الاضواء على اخطاء الحركات الثورية العربية ، وفيما تنشط هذه القوى في اقناع ابناء الامة العربية ، ان هذه الاخطاء والعلل هي من القوة والرسوخ بحيث يستحيل التخلص منها ، وفيما تريد ان تستنتج من خلال ذلك أن طريق الثورة ومجابهة العدو هو طريق يفضي الى الخسارة ، فان التحدي الكبير الذي يواجه العمل الفدائي هو ان يثبت فعلا قدرته على الخلاص من اخطائه ونقائصه .

ان خروج العمل الفدائي في لبنان من مرحلة الانكفاء التي يعيشها الان الى مرحلة جديدة تتوفر فيها كافة الشروط لمواصلة النضال العسكري والسياسي ضد العدو بشكل ملموس ليس امرا مستحيلا ، غير ان تحقيقه يتطلب الالتزام الحقيقي والصادق ببرنامج عمل يستفيد من الدروس ومن التجارب التي خاضها العمل الفدائي في لبنان والاردن .

واذا كنا نؤمن ان برنامج العمل هذا يجب ان يأتي نتيجة مراجعة شاملة تقوم بها جميع المنظمات الفدائية مشتركة ، تحكم فيها العقل والمصارحة الثورية وتهتدي فيها بالحقيقة وحدها ،

فاننا نستخلص بعض المقترحات التي نعتقدها حرية بالاهتمام في جملة الحلول والمقترحات المطروحة للتغلب على ازمة المقاومة في لبنـــان .

عسكريـا

أ ـ الغاء القواعد المكشوفة والتركيز على بناء الخلايا العسكرية السرية . ان جهدا رئيسيا يجب ان ينصب هنا على بناء خلايا سرية عسكرية بين ابناء الجليل الاعلى من الفلسطينيين وبعيدا عـــن متطلبات التنافس الديماغوجي بين المنظمات ، ينبغي عدم تحريك هذه الخلايا في عمليات عسكرية ما لم تتوفر لديها القدرة علـــى الاستمرار على الرغم من ضربات سلطات الاحتلال الاسرائيلية ، وتحقيق هذا الشرط مرهون الى حد بعيد بمدى ارتباط مجموع ابناء الجليل الاعلى بفكرة الكفاح الشعبي المسلح واستعدادهـــم للمساهمة فيه .

ب ـ اخراج فكرة التشكيلات العسكرية الموحدة للمنظمات من الجمود . فلقد انشأت سرية موحدة بين المنظمـــات لم تلبث ان قاطعتها فتح بسبب اسناد قيادتها الى احد ضباط «الصاعقة» ان هذا السبب لا يتساوى على الاطلاق مع النتائج الايجابية التـــي يمكن انْ تتحقق من جراء الاقدام على مبادرات ملموسة في طريق توحيد التنظيمات الفدائية المقاتلة في جنوب لبنان .

ان الصعوبات التي جابهت انشاء السرية الموحدة ادت الـــى تحويلها الى جهاز بيروقراطي آخر من اجهزة الثورة الفلسطينية بحيث انتفت كليا الغاية التي أنشئت من اجلها .

ج ـ الامتناع عن اطلاق الصواريخ عبر الحدود او عن القيام بعمليات قرب القرى الحدودية . ولا بد من الاشارة هنا الى عامل هام طرأ على اوضاع الحدود الجنوبية . اذ ان اسرائيل حصنت الحدود تحصينا مكثفا بتعزيز اجهزة المراقبة وبناء الاسلاك المكهربة

وشق الطرقات لتحرك الآليات السريع واستخدام طائرات الهيلوكبتر في مكافحة عمليات عبور الفدائيين ، بحيث باتت اصعب كثيرا من السابق واكثر تعريضا للفدائيين لخطر الهلاك .

ان هذه الاخطار لا تقل شأنا في نظرنا عن الممارسات العسكرية الخاطئة التي كانت تلجأ اليها المنظمات الفدائية باطلاق الصواريخ «عابرة الحدود» فكثيرا ما كانت هذه الصواريخ تسقط على القرى اللبنانية نفسها فتؤدي الى ردة فعل ضد العمل الفدائي وتساعد على تأليب ابناء القرى الامامية ضد العمل الفدائي مما يؤدي الى افقاده قاعدته الجماهيرية اي المصدر الرئيسي لقوته واستمراريته.

ان تحصين الحدود الاسرائيلية يجب ان يقابل بالتفتيش عن اساليب ووسائل جديدة ومبتكرة لاختراق هذه الحدود والتغلب على التقنية الاسرائيلية . لقد واجهت الثورة الجزائرية هذه المشكلة عندما أقام الفرنسيون «خط موريس المكهرب» على الحدود الجزائرية التونسية لمنع الثوار الجزائريين من عبورها ، غير ان الثوار استطاعوا التغلب على هذه العقبة بعد فترة قليلة عبر استخدامهم وسائل وطرق تكنيكية مضادة .

د ـ العناية الجذرية بالميليشيا : ان اهالي الجنوب يجب ان يتحولوا الى مقاتلين حقيقيين يستطيعون ان يكبدوا العدو خسائر جمة اذا فكر بدخول اراضيهم .

يقول ماوتسي تونغ «ليس العار ان يدخل العدو ارض بلادنا، ولكن العار كل العار ان يخرج منها حيا» ان هذه الفكرة يجب ان تتحول الى قناعة راسخة لدى جميع ابناء الجنوب .

ان جهدا حقيقيا يجب ان ينصب على تجديد ايمان ابناء الجنوب بالعمل الفدائي وعناية حقيقية يجب ان تولى لمن يقبل منهم الانتماء للعمل الفدائي ، فيدرب تدريبا كافيا ومتواصلا ويهيأ لمجابهة كافة الاحتمالات والصعاب .

واشراك عناصر الميليشيا في عمليات عسكرية على ارض العدو تجعله اكثر استعدادا لمجابهته عندما يراه داخلا قريته او بلدته.

هـ ـ تشكيل قيادة موحدة للمنظمات الفدائية ولمنظماتها القتالية في الجنوب وعلى عاتق هذه القيادة تقع مسؤولية رفع مستوى العناصر المقاتلة ، والتخطيط لعمليات موحدة ، ووضع الخطط الدفاعية المشتركة لصد هجمات العدو .

اننا ندرك مدى الصعوبات التي تواجه توحيد قيادة الفدائيين في الجنوب . فلقد طرحت هذه الفكرة مرارا ، بل واتفق ايضا على تشكيل هذه القيادة ، غير انها لم تمارس اي نشاط فعلي فبقيت قيادة اسمية فحسب . ان هذا الوضع يجب الا يبعث على اليأس وعلى صرف النظر نهائيا عن اقامة هذه القيادة. هل نذكر بأن روسيا الاشتراكية والولايات المتحدة الرأسمالية كانا ينسقان خطواتهما العسكرية ضد المانيا الهتلرية حتى نؤكد بان امكانية التعاون المشترك بين فتح ، الصاعقة ، الشعبية ، الديمقراطية والعربية ممكن ضد عدو مشترك واحد ؟!

سياسيا

أ ـ تحقيق الوحدة الوطنية بين المنظمات كخطوة اولى وضرورية تمهد للالتحام بالحركة الوطنية اللبنانية ، والعمل المتواصل من اجل توحيد صفوفها وقواها والتخفيف من حدة الانقسامات الجانبية والهامشية بين تنظيماتها .

ب ـ النضال جنبا الى جنب مع الحركة الوطنية اللبنانية من اجل توسيع الحريات الشعبية والديمقراطية ، بما في ذلك ازالة كافة انواع الضغط والكبت والارهاب الموجهة ضد الجماهير الفلسطينية .

ج ـ المساهمة النشيطة مع الحركة الوطنية اللبنانية في اسقاط الحواجز الطائفية وتوضيح مخاطر الحركة الصهيونية على مستقبل اللبنانيين جميعا وخاصة ابناء الجماهير الشعبية منهم .

د ـ محاربة نزعات الملل النضالي واليأس والانكفاء والانهزامية

التي بدأت تسيطر على اوساط لبنانية كثيرة كانت تؤيد العمل الفدائي .

هـ ـ المساهمة النشيطة في النضالات التي تخوضها الجماهير في لبنان من اجل رفع مستواها المعيشي والتخفيف من حدة التمايز الطبقي في البلاد . ولا بد هنا من الاشارة الى الاوضاع التي تعيشها المخيمات الفلسطينية وضرورة الاهتمام الجدي بتحسينها .

لقد كانت هناك فكرة خاطئة كليا تقول بأن رفع مستوى معيشة الفلسطينيين هو شكل من أشكال التوطين يسهم في التخفيف من حدة حماسهم للنضال من اجل العودة . ان هذه الفكرة الخاطئة وغير الانسانية تذكر بأساليب الصهاينة انفسهم الذين كانوا يشجعون النزعات اللاسامية واعمال الاضطهاد ضد اليهود لكي يكون ذلك دافعا لهم للقدوم الى فلسطين . ان رفع مستوى الفلسطينيين في المخيمات عبر نضالات مستمرة منسجمة مع النضالات التي تخوضها الطبقات الكادحة اللبنانية سيعزز الروح النضالية عند الجماهير الفلسطينية وسيمنحها ثقة بالنفس ونظرة متفائلة الى الحياة والى امكانية تبديل الواقع وقلبه لمصلحة المسحوقين والمضطهدين . ان انتشار العلم والقضاء على الامراض والتخفيف من حدة المشاكل الاجتماعية لن يقلل من اصرار الفلسطينيين على النضال من اجل العودة ، بل سيجعله قادرا على رؤية كافة العقبات الحقيقية التي تعترض طريق نضاله ، وسوف يزوده بالقدرة على تحديد الاساليب والطرق الكفيلة بالتغلب على هذه الطرق . وهذا التحول في حياة ابناء المخيمات مشروط بوجود قيادة واعية ، موحدة ، ثورية ، تصب النضال المستمر والانتصارات الجزئية التي يحققها هؤلاء على صعيد التطور الاجتماعي والمعيشي ، تصبه في مجرى النضال العام الذي يخوضه الفلسطيني خاصة والعرب عامة لتحرير فلسطين وإزالة الكيان الاسرائيلي .

ان النضال الذي تخوضه المنظمات الفدائية متلاحمة مع الحركة الوطنية في المجال الاجتماعي ، يمكن ان يكـــون على مستويين : احدهما يتوقف النجاح فيه على مدى القدرة على انتزاع مكاسب مطلبية من الدولة نفسها ، وآخر يمكن ان تبادر اليه هذه المنظمات بالاعتماد على امكاناتها الذاتية ، كاقامة التعاونيات الانتاجيـــة والاستهلاكية في الريف والمناطق المدينية الشعبية ، وكتنفيـــذ مشاريع عمل شعبي في المخيمات نفسها بالاعتماد على العمـــل التطوعي .

ان تحقيق هذا البرنامج ليس امرا هينا ، وهو يتطلب الكثير من الجهد ، ولكن من قال ان تحرير فلسطين يتم بيسر ؟ ومن قال ان التغلب على اوضاع التردي والانكفاء التي يعيشها العمـــل الفدائي الان امر سهل ؟

ان حركة المقاومة ليست مخيرة اليوم بين الاستمـرار وبين تطوير اوضاعها والتغلب على نقائصها ، انها اما تندثر وتتحول الى حركة فاقدة لاي محتوى نضالي وثوري وامـــا ان تباشر باصرار وتصميم عملا تصحيحيا ذا أفق تاريخي . وفي لبنان حيث العمل الفدائي لا يزال يحتفظ بالكثير من المكاسب التي حققها ، ولا يزال يتمتع بعطف الجماهير واستعدادها للتجاوب معه ، تبدو امكانية البدء بهذا العمل التصحيحي متوفرة شرط ان توجد قيادة ثورية في مستوى المهمات المطلوب انجازها .

ــ كانون الثاني ١٩٧٢ ــ

دور الحركة الوطنية في الثورة الفلسطينية[١]

ان تحديدنا لدور الحركة الوطنية في الوطن العربي في معركة التحرير ينبع من عوامل متعددة ، يأتي في مقدمتها فهمنا لطبيعة العدو الصهيوني ولاهدافه الاستراتيجية .

لقد درج البعض على القول بأن اسرائيل أقيمت من اجل خلق حاجز بشري بين مشرق الوطن العربي ومغربه ، بحيث تتعطل امكانية توحيد هذا الوطن . وتظل الممرات البرية والبحرية والجوية بين القارة الاسيوية وبين اوروبا مفتوحة الى الابد ، لا يتهددها قيام دولة عربية قوية معادية للاستعمار .

وهذا الاعتقاد على اهميته ، وعلى الرغم من وجود ادلة تاريخية كثيرة تؤكد صحته ، الا انه يقصر عن فهم واستيعاب الاهداف الحقيقية للحركة الصهيونية ، فيعتبرها خطرا سلبيا ، جامدا ، محبوسا في نطاق محدد ، موظفا بالدرجة الاولى لخدمة مصالح القوى الاستعمارية التقليدية .

ومقابل الادلة التي ترجح هذا الفهم لطبيعة العدو الصهيوني وطبيعة الاهداف التي أنشئت من اجلها دولة اسرائيل ، فان هناك حقائق تاريخية لا تحصى تدل على ان اهداف الحركة الصهيونية

---

١ ـ دراسات عربية ـ السنة الثامنة . العدد ١٠ ، آب ، اغسطس ١٩٧٢ .

من اقامة اسرائيل تتجاوز هدف الدولة ــ الحاجز الى ما هو اشد خطرا وتهديدا للمصير العربي برمته .

ان هذه الحقائق تدلنا على ان ما تسعى اليه الحركة الصهيونية هو ان تقيم دولة اسرائيلية كبرى تبسط سيادتها على المنطقة العربية برمتها بحيث تحمل هذه الدولة كافة السمات والمميزات التي تحملها الدول الاستعمارية العريقة .

والاستراتيجية الصهيونية تهيء الردود الكافية على جميع المعضلات والمشاكل التي يستثيرها السعي لتحقيق هدف من هذا النوع ، وفي هذه الدرجة من الخطورة .

فالتفوق في الكم البشري عند أمتنا تعالجه الحركة الصهيونية بالاصرار الدائم على نزع الهوية العربية عن المنطقة وعلى محاربة كل ما من شأنه ان يعزز النزعة القومية عند الجماهير العربية . والاتجاه الرئيسي الذي تعمل الحركة الصهيونية من خلاله من اجل حل مشكلة التفاوت بين عدد الاسرائيليين وبين عدد ابناء الامة العربية هو اعادة رسم خريطة المنطقة بحيث تسير الحدود السياسية والاقتصادية والاجتماعية جنبا الى جنب مع الحدود الطائفية والعنصرية ، وعندما يتم للحركة الصهيونية استنفار عوامل التجزئة والتفتيت في هذه المنطقة فان الوطن العربي لن يضم سبع عشرة دولة فقط ، بل ان هذه الدول سوف تتفتت بدورها الى عشرات «البانتوستانات» العربية او الدويلات الصغيرة التي تقع تحت السيطرة المطلقة للعدو الصهيوني .

وعندما يطمس الانتماء الحضاري الى الامة العربية عند سكان المنطقة ، وتزول الرابطة القومية فيما بينهم ، تنحل تلقائيا بالنسبة للعدو مشكلة التفاوت في الكم البشري ، ويصبح اسهل بكثير على اسرائيل ذات المليونين او الخمسة ملايين او العشرة ملايين ان تسيطر على منطقة تضم مئة مليون او اكثر .

كذلك تحاول الحركة الصهيونية ان تتحاشى مشكلة الاصطدام بحتمية تطور شعوب المنطقة وسكانها ، فتدخل في مخططاتها

برامج ومشاريع لتطوير المنطقة بما لا يتناقض مع استراتيجية السيطرة على طاقاتها وثرواتها واخضاعها لمصلحة الاحتكارات العالمية . تلك الاحتكارات التي تشارك فيها الرأسمالية الصهيونية بنسبة ما تسهم به من تعزيز للمعسكر الامبريالي . وهي نسبة قابلة للازدياد بمقدار ما تحقق أطماعها الاستعمارية في المنطقة العربية .

ان التطور الذي تعده الحركة الصهيونية لهذه المنطقة لا يختلف اختلافا جذريا عن تطور البلدان المستعمرة في كنف السيطرة الاستعمارية . فهو تطور يبقي الاقطار التابعة لاسرائيل مصدرا للمواد الخام وسوقا لتصريف الانتاج الصهيوني . يتم هذا التعاون مع الطبقات الاقطاعية والرأسمالية او شبه الرأسمالية الموجودة في المنطقة العربية اذ ان هذه الطبقات التي اعتادت خدمة مصالح الاستعمار الغربي ، ستجد الف مبرر لخدمة المستعمر الاسرائيلي وللتحالف المعلن الصريح معه . ولعل المخطط الذي تسير فيه الحركة الصهيونية الان لدمج اقتصاد الضفة الغربية بالاقتصاد الاسرائيلي يمثل نموذجا لآفاق التطور المسموح به في ظل الهيمنة الاسرائيلية وللقوى الطبقية والسياسية التي ستوظف لقيادة هذا التطور وتوجيهه في خدمة مخططات السيطرة الصهيونية .

في هذا النطاق ، نعتبر ان المشاريع المتعددة التي طرحت لحل ما يدعى «بأزمة الشرق الاوسط» حلا سلميا يتطابق مع الاستراتيجية الصهيونية ولا يتناقض معها . فمشروع المملكة العربية المتحدة ، ومشاريع الدويلة الفلسطينية كلها تدخل في نطاق مخطط اسرائيل من اجل تفتيت الوطن العربي واقامة دويلات صغيرة ترتبط ارتباطا كليا بالبنى الاقتصادية والسياسية والعسكرية الاسرائيلية .

في هذا النطاق ايضا فاننا نعتبر ان اقامة دولة اسرائيل على ارض فلسطين العربية لم يكن هدفا بحد ذاته بمقدار ما كان مرحلة من مراحل الغزو الصهيوني للوطن العربي بأسره .

اما اختيار فلسطين كأرض انطلاق لغزو الوطن العربي ، فانه يحقق للحركة الصهيونية جملة فوائد يأتي في مقدمتها ما يلي :

اولا ـ انه يخفف من الطابع الامبريالي والاستيطاني للغزو الصهيوني ويضفي عليه طابعا دينيا وانسانيا يستثير حماس اليهود بالتركيز على فكرة فلسطين ـ ارض الميعاد ، كما يستثير ايضا عطف بعض شعوب العالم بالتركيز على فكرة فلسطين الوطن ـ الملجأ لليهود المضطهدين والمعذبين .

ثانيا ـ أن فلسطين توفر موقعا استراتيجيا ممتازا لتحقيق المراحل اللاحقة من مخطط اقامة دولة اسرائيل الكبرى وصهينة المنطقة العربية .

ان هذا التصور قد يكون بديهيا بالنسبة للكثيرين ، معروفا لدى الجميع ، ولكننا نجد انفسنا في حاجة دائمة الى تكراره والتأكيد عليه طالما انه لم يعكس نفسه حتى الان على طبيعة مواجهة الحركة الصهيونية والقوى الامبريالية والرجعية الحليفة لها .

فالصراع على مصير المنطقة ، هو في نظرنا صراع بين الحركة الصهيونية المتحالفة مع الامبريالية ومع الرجعية المحلية من جهة، وبين حركة الثورة العربية المدعومة من قوى المعسكر الاشتراكي والشعوب المناضلة ضد الاستعمار من جهة أخرى .

وفي حين تقر اكثر فصائل الحركة الوطنية بصحة هذا التصور ، فانها في النضال العملي تبتعد عن الاخذ بمقتضياته وتنصرف الى النضال ضمن الاقليمية والقطرية بعيدا عن ارض الصراع الحقيقي مع العدو .

لذلك فاننا نشدد دوما على شعار «قومية المعركة» ضد العدو.

ان هذا الشعار ينطلق من فكر قومي تقدمي قادر على تحليل الظاهرة الصهيونية وعلى الاحاطة بأهدافها البعيدة والقريبة ، وعلى فهم سياساتها التكتيكية والاستراتيجية ، وعلى استيعاب خطورتها على مصير الامة العربية . كما انه قادر على طرح الحلول الصحيحة والسليمة لا لمشكلة الصراع مع العدو فحسب ، بل ايضا

للمشاكل الذاتية التي يعيشها الانسان العربي .

والالتزام بهذا الشعار يقتضي النضال ضد العدو وفق استراتيجية قومية تشمل ساحات النضال في الوطن العربي بأسره . فمما لا ريب فيه ان تحرير الاراضي العربية المحتلة لا يمكن ان يتم بمعزل عن تثوير الاوضاع العربية . اي الاسراع في تحرير اقتصادها من السيطرة الامبريالية ، واطلاق حرية الجماهير العربية ورفع المظالم الاجتماعية والسياسية عنها ، وتوحيد طاقاتها وتحقيق مجتمع الحرب والمجابهة .

ان اعتبار الوطن العربي ساحة واحدة للنضال ضد العدو لا يعني تجاهل التفاوت في مستويات التطور بين الاقطار القومية من خلال استراتيجية تأخذ بعين الاعتبار الاختلاف والتنوع في الاوضاع العربية . ولكنها لا تعتبر ذلك داعيا لحصر النضال ضمن الاطارات القطرية والاقليمية . ولا تعتبر ذلك مبررا للتقليل من اهمية النضال ضد الاحتلال الاستيطاني الصهيوني ولا التقليل من اهمية القضية الفلسطينية وجعل تحرير الاراضي العربية المحتلة مساويا من حيث الاهمية للنضال التحرري في اجزاء أخرى من الوطن العربي .

فاستراتيجية المجابهة القومية تستوعب هذا التنوع والاختلاف من خلال أتباع سياسة المراحل المختلفة في النضال ، ومن خلال اتباع اساليب نضالية مرنة تتلاءم مع الاختلاف في مستوى التطور الاجتماعي والسياسي الحاصل في كل قطر .

ان تطبيق استراتيجية موحدة للنضال ضد العدو على امتداد الوطن العربي يقتضي تكوين اداة كفاحية موحدة . هذه الاداة هي التنظيم القومي المركزي القيادة المنتشر في الاقطار العربية ، القادر على شن نضال دائم ضد العدو وحلفائه .

لقد سئل مرة احد قادة فصائل الثورة الفلسطينية عن رأيه في قيام تنظيم قومي للنضال ضد العدو ، فأجاب : «ان في تنظيماتنا من الاخوان العرب غير الفلسطينيين ما يزيد على جميع

اعضاء المنظمات القومية في الوطن العربي» . ولئن كان هـــذا الجواب مطابقا للواقع ام لا ، فاننا لا نعتبر التنظيم الذي يضـم أعدادا كبيرة من المواطنين المنتمين الى اقطار عربية مختلفة تنظيما قوميا . ان انضمام مواطنين عرب من اقطار عربية متعددة الــى فصيل من فصائل الثورة يجعله بالتأكيد اكثر اقترابا من شعار قومية التنظيم من الفصائل الاخرى التي تقتصر عضويتها علـــى ابناء القطر الواحد . ولكن هذا لا يجعله مستوفيا لكافة شروط قومية التنظيم الذي تخوض فروعه نضالات واضحة وصريحة ضد حلفاء اسرائيل في كافة الاقطار العربية .

ففي اطار استراتيجية المجابهة القومية تناضل فروع التنظيم ضد الطبقات والفئات المرتبطة ضمنا او علنا بالحركة الصهيونية.

وقومية التنظيم تقتضي فتح كافة المراتب والمسؤوليـــات القاعدية والقيادية والنضالية امام جميع ابناء الاقطار العربية كي يتمكنوا من المشاركة في اتخاذ القرارات المصيرية الحاسمة بهدى ادراكهم ووعيهم لعمق وأبعاد الصراع مع العدو .

ولكي لا تتجه الاذهان الى تفسيرات خاطئة لتشديدي علـى اهمية قومية التنظيم في رفع مستوى التصدي للغزو الصهيوني، فانني أؤكد ان ما من حزب او فئة تتوفر فيها الشروط التـــي عرضتها كاملة . ولهذا فقد دعا حزب البعث الى قيام جبهة قومية شعبية كأداة للنضال ضد العدو ، وذلك ادراكا منه بأن حـــرب التحرير لا يمكن ان تقوم وأن تتحقق مهامها الا بتحالف جميــع الطبقات والفئات المعادية للاستعمار من خلال المنظمات والاحزاب والقوى الثورية المعبرة عنها .

ولقد ظلت هذه الدعوة معلقة زمنا طويلا حتى اثبتت الاحداث صحتها ، فاتجهت فصائل المقاومة الى تبنيها وللاعداد لاقامــة الجبهة العربية المشاركة غير انه نجد من الضروري هنا ان نبدي ملاحظتين رئيسيتين :

الاولى ـ هي ان الاتجاه نحو اقامة هذه الجبهة يأتي فيظروف

انحسار بالنسبة لمجمل فصائل المقاومة ، وفي ظروف ضمور العمل العسكري على الرغم من البطولات والتضحيات الخارقة التي يبديها بعض ابناء الثورة مثل عملية وليم نصار الاخيرة .

والثانية ـ هي ان الجبهة العربية المشاركة تهدف الى تنسيق الدعم المادي والاعلامي الذي تقدمه الحركات التقدمية في الوطن العربي لحركة المقاومة . فهي من هذه الناحية لا تبدل طابع العلاقة بين الحركات الوطنية العربية وبين حركة المقاومة تبديلا جذريا ، بحيث تكون أداة تحقيق استراتيجية مجابهة حقيقية على النطاق القومي .

وعلى هذا الاساس فاننا نعتقد ان اهمية الجبهة العربية المشاركة هي في كونها مؤشر للاتجاه السليم في حل مشاكل حركة المقاومة وإطار للعمل قابل للتطور الى مستوى الاداة القومية المتوخاة . اما في حدودها الحالية فان الجبهة العربية المشاركة سوف تكون عاملا من العوامل المساعدة على وقف تراجع وانحسار حركة المقاومة اكثر منها ان تكون عاملا يدفع المقاومة الى النهوض من جديد .

وهكذا تبقى المهمة المركزية والرئيسية للحركات الثورية في الوطن العربي مهمة بناء الجبهة القومية الشعبية التي تقودها الاحزاب والقوى الممثلة بتركيبها وبفكرها ومواقفها لمصالح الطبقات الكادحة . فهذه الطبقات هي الاكثر قدرة على تصفية المصالح الامبريالية والصهيونية ، وهي الاكثر قدرة على تحمل تبعات الحرب الطويلة الامد مع العدو .

وكما تلعب هذ الطبقات دورا قياديا في الجبهة التي تناضل من اجل قيامها، كذلك فان الجماهير الفلسطينية تلعب دورا مميزا بين جماهير الاقطار العربية لانها هي الاكثر تعرضا للظلم والاضطهاد من قبل العدو .

اننا اذ نعتبر هذ المهمة على المستوى الذي اشرنا اليه من الخطورة ، واذ نعتبر انها يجب ان تحتل المرتبة الكبرى بين الاهداف

النضالية لا يغيب عنا ما لبعض المهمات الآنية والمباشرة من اهمية كبرى في مصير الثورة العربية عامة والثورة الفلسطينية خاصة .

غير ان تحقيق هذه المهمات الآنية والمباشرة يرتبط الى حد كبير بقدرتنا على اقامة الجبهة الشعبية القومية ووضع شعار قومية المعركة وقومية المجابهة مع العدو موضع التطبيق .

– حزيران ١٩٧٢ –

صدر من هذه السلسلة











البعث والقضية الفلسطينية